من أبرز تداعيات حادث اغتيال المهندس 'يحيى الغول' في غزة: 'العمالة من منظور سياسي واجتماعي'

26-10-2004

غزة - فلسطين

ارتبط في العقلية الفلسطينية بشكل خاطئ أن العميل فقط هو كل من يقدم معلومات للعدو، مع أن العمالة لا تنحصر خدماتها للعدو في مجال تقديم معلومات فحسب وربما لذلك كان للعملاء أقسام وأنواع

بقلم د . محمد ابراهيم المدهون

من أبرز تداعيات حادث اغتيال الشهيد المهندس "يحيى الغول" في غزة في الحادي والعشرون من أكتوبر/2004 ، الدور الذي أداه العملاء في الصف الفلسطيني وذلك خدمة للمشروع الصهيوني في المنطقة.. ولأجل إيضاح خطورة هذا الدور كانت هذه الدراسة.

العمالة..

اسم تشكل بصبغة معروفة محددة في دوائر مجتمعنا الفلسطيني، مع أن ذات الكلمة قد لا تعني بشكل جازم ما اختمر في الوجدان الفلسطيني بأنها مرادف الخيانة والسقوط لكلمة الواقع الاحتلالي الذي عشناه ردحاً من الزمن، أخرج هذه الكلمة من قاموسها العام إلى القاموس الفلسطيني الخاص وشكلها وفق رؤية محددة معلومة تشمئز منها النفوس وتبرأ منها العقول..

العمالة تاريخاً ليست طارئاً على البشر بل قد تكون واكبت سني حياة البشرية حتى غدا اسم أبي رغال مثلاً مرادفاً لمعنى هذه الظاهرة، ولأن حياة البشر قامت في معظم الأوقات على الحروب والصراعات فقد لزمت هذه الظاهرة كجزء من حرب وعامل من عوامل حسم صراع، وتطورت هذه الظاهرة لينتج العلم الحديث أرقى علومه لتيسير مهمة الطابور الخامس، خاصة أن دور هذه الفئة بات بارزاً في حسم معارك وظهور فئات وجيوش.

وإلى فترة قريبة من زمننا الحالي كان الحديث عن ظاهرة العملاء من المحرمات أمنياً وأي دراسة أو مقال في هذا المجال لا يصدر إلا باسم مستعار نظراً للمخاطر الأمنية التي تكتنف الحديث عن هذه الظاهرة نتيجة وجود الاحتلال وربما لهذا السبب لم تظهر الدراسة العلمية الكافية التي تستطيع وضع النقاط على الحروف والمساهمة في حل هذه المعضلة نهائياً.

أقسام العملاء:

ارتبط في العقلية الفلسطينية بشكل خاطئ أن العميل فقط هو كل من يقدم معلومات للعدو، مع أن العمالة لا تنحصر خدماتها للعدو في مجال تقديم معلومات فحسب وربما لذلك كان للعملاء أقسام وأنواع.

1- العميل الأمني: ويقوم بجمع المعلومات وتقديمها للعدو وتتفاوت أهمية العميل في هذا المجال بمدى أهمية المعلومات التي يقدمها ومدى الاختراقات التي يحققها.

2- العميل الاقتصادي: ويقدم خدمة للعدو بربط العجلة الاقتصادية للوطن بعجلة العدو من خلال خدمة المخططات الاقتصادية للعدو وتنفيذها ورعايتها ولا يُلزم هذا النوع تقديم معلومات وإنما يلزمه ترسيخ معاني التبعية الاقتصادية مع محاولات تخريب وتدمير الاقتصاد الوطني وفي هذا الإطار يقبع عادة كبار التجار والسماسرة وأصحاب رؤوس الأموال.

3- العميل السياسي: حيث ينفذ سياسة العدو حيث يتلقى منهم الأمر بشكل مباشر أو غير مباشر ومن ثم العمل على ترويج الأفكار السياسية التي تخدم الاحتلال.

وهناك تقسيمات أخرى لأنواع العملاء سواء تقسيمات مناطق أو تقسيمات عشائرية أو تقسيمات على أساس المهنة..

ولعل الضعف الإنساني هو السبب الأبرز لتنامي هذه الظاهرة المدّمرة.. ضعف الإنسان في مواجهة الواقع.. خوفه من المستقبل.. عدم اطمئنانه للغيب والرزق.. ضعفه أمام الأهواء والشهوات..

وقد تعددت لذلك أسباب التعامل منها الضعف العقائدي والدوافع المادية والغريزية مع فقدان الوعي الحركي والجبن والخوف مع عدم وجود رهبة نتيجة عدم وجود عقاب ولأن الدراسة تهتم بشكل أساسي بالناحية السياسية والاجتماعية لظاهرة العمالة فإننا نتناول:

أسباب السقوط السياسية والاجتماعية:

فقد مثل الواقع السياسي الذي يحياه شعبنا والذي استغلته مخابرات الاحتلال حتى أنبل هذه الظواهر "الانتماء" خدشتها المخابرات باستغلالها في عمليات الإسقاط، ولعل الثمرة التي حققها الاحتلال في هذا المجال كبيرة بسبب ضعف وانعدام الوعي الحركي لدى الفرد والمؤَّطر سياسياً وتنظيمياً ليجد نفسه فجأة أمام رجل المخابرات دون أن يملك مقومات الحصانة والوقاية فيخدعه رجل المخابرات بالإفراج أو التخفيف فيتحول بشكل دراماتيكي مؤلم من مقاوم فدائي إلى عميل متعاون؟؟!!

وقد طورت المخابرة هذه الطريقة فلم تقف عند هذا الحد، حيث استغلت الحس الوطني لدى الشباب الفلسطيني وذلك بتكوين خلايا وهمية تلبس الثوب الوطني أو الإسلامي لجذب عناصر جديدة التي سرعان ما تقع في الشرك الخطير لتجد نفسها في دائرة العمالة لا في إطار المقاومة.

أما الأسباب الاجتماعية للسقوط فهي عديدة وربما تمثلت بشكل قاطع هراوة قذرة استخدمتها أجهزة الاحتلال من أجل إسقاط ما يمكن إسقاطه في براثن العمالة.. وأساس هذه الأسباب الضعف البشري حيث هاجمت قوى الشر هذا المخلوق من نقطة ضعفه وهذه الطرق عدّة ولكن يمكن حصرها بنقطتين أساسيتين.

1- الفساد الأخلاقي كالزنا واللواط، حيث مثلت طريق السقوط للهاوية سواء من خلال الأهل أو رفقاء السوء حيث يهوى الرجل أو الفتاة في حمأة الشهوة لحظة واحدة ومقابل هذه الخطيئة يقع صريعاً، حيث لابد من دفع الثمن (العمالة أو الفضيحة) وتكون تلك اللحظة الحيوانية الخطوة الأولى في مشوار الخيانة الطويل والمرير.

2- المخدرات وهي الآفة الاجتماعية التي تمثل أحد زوايا مثلث الإفساد الرئيسية مخدرات، زنا، عمالة حيث تتحقق العمالة بطريق المخدرات عبر وصول الضحية إلى الإدمان وأول جولة مع المخدر هي الخطوة الأولى في طريق العمالة.
وإذا كانت هذه الظاهرة المتشعبة الحقيقة تمثل خنجراً مسموماً مغروساً في ظهر شعبنا الفلسطيني لذا يجب ملامسة كبد الحقيقة بضرورة العمل الجاد السريع للقضاء على هذه الآفة الخطيرة وليس القضاء عليها درباً من الخيال ولا مستحيلاً ولكنه بحاجة إلى خطوات حاسمة شجاعة من الجميع وكما أن مشوار السقوط في براثن العمالة يبدأ بخطوة واحدة فإن مشوار النجاة من هذا المستنقع يبدأ كذلك بخطوة واحدة.
طرق العلاج:
ومن أهم عوامل القضاء على العمالة:
1- الوقاية خير من العلاج:
وأساس الوقاية المعرفة وأساس النجاة من الشر (والعمالة أعظم الشر). وذلك انطلاقاً من منهج حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حيث كما يقول كان الناس يسألون عن الخير وكنت أسأل عن الشر مخافة الوقوع فيه وبذلك كان حذيفة رضي الله عنه أستاذ مدرسة الأمن الأولي في الإسلام، ولكن المعرفة بشكل مجرد لا تكفي فلابد من توفر تربية إسلامية صافية قوية، فالإسلام وحده الكفيل بوقاية الأمة حيث عقيدة المسلم تمنعه مجرد التفكير في الخيانة والسقوط وأخلاقه تمنعه ارتكاب الفواحش التي هي باب العمالة الواسع.
مع ضرورة توفر مراقبة دائمة للإخوة والأبناء، مراقبة علاقات وصداقات وتحركات مع توفير البديل الإسلامي الدائم مع دفع كامل للإخوة والأبناء من أجل الانخراط في العمل الإسلامي والوطني وهذا يلزمه خلق جو من التفاهم والثقة داخل الأسرة بحيث يفضي الفرد همومه لأسرته مع التحذير الدائم للجميع رجالاً ونساءً من مواقع الخطر والتي تمثل شراك السقوط في براثن العمالة مثل المحلات العامة والكوافير والأستوديو وبيوت الأزياء ومحلات الفيديو ومصانع الخياطة وغير ذلك..
مع ضرورة الانتباه واليقظة من وباء المخدرات والعلاقات مع الجنس الآخر مع الحرص البالغ في اختيار شريك الحياة مع تربية متقنة للأبناء على الحذر والكتمان فهما أساس النجاة..
كل هذه العوامل تساهم بشكل أو بآخر في الوقاية من هذا الخطر والوقاية خيرٌ من العلاج.
2- العلاج:
والخطوة الأولى لعلاج من سقط في براثن العمالة ومستنقعها الآسن لابد من تحديد الدرجة التي تورط فيها الشخص وفي هذا الميدان شتان بين من وافق على الارتباط وبين من شارك فعلياً ضد أبناء شعبه سواء بكلمة أو طلقة.
فالحالة الأولى تلزم من يعرفها من أفراد الشرطة أو الجيران أن يبادر إلى إقناع ومنع الضحية من مزيد تورط في هذا المستنقع وخاصة إذا ثبت أنه كان مُجبراً بشكل واضح وصريح على السقوط كخداع فتى أو فتاة والزنا وهذا في الفقه الإسلامي يقع ضمن باب الإكراه والذي يُعفى صاحبه من المسئولية "إلا مَنْ أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان".
أما حال التورط وتقديم معلومات، فعلى المعالج الاستعانة بآخرين سواء من ناحية خبرة أو عملية بحيث يزداد احتمال تحقيق النجاح في العلاج.
أما إذا كان التورط حاداً كالتدرب على السلاح وإقامة شبكات والأخطر تنفيذ مهام عملية ضد أبناء الشعب كالملاحقة والقتل، فالعميل هنا وصل إلى حد الإجرام ولابد من العقاب وأول خطواته التشهير داخل العائلة والمنطقة حتى يتهيأ الظرف للعقوبة.
آثار العمالة:
ولعل الآثار (السياسية – الاقتصادية – الاجتماعية – العسكرية) لا تدع مجالاً للشك في حجم الخسارة التي خلفها الاحتلال، ولعل الحديث عن هذه الآثار يحتاج إلى دراسة مستقلة ونمر سوياً على الآثار السياسية والاجتماعية لهذه الظاهرة الخطيرة، فعلى الصعيد السياسي والاجتماعي حالة الانقسام السائدة بين الأطر الفلسطينية والعائلات على اختلاف توجهاتها عدا كونه نتيجة لاختلافات فكرية وسياسية في الآراء فقد ساهمت هذه الظاهرة في تغذية حال التفسخ السياسي والاجتماعي في ظل خطط احتلالية مبرمجة حتى وصل الحد أن يقتل الفلسطيني أخاه بيسر وسهولة مما خلق جوا سياسيا مشحونا ومقيتا، وربما كان هذا أكثر بروزاً في قطاع غزة عنه في الضفة الغربية نظراً للاكتظاظ السكاني والقرب المكاني بين كافة أبناء الشعب الفلسطيني داخل قطاع غزة.
أما على الصعيد الاجتماعي، فلا يكاد يختلف اثنان عن حالة الفساد الاجتماعي التي خلقتها ظاهرة العمالة من خلال عمليات الإسقاط والدور المخابراتي المبرمج في المساهمة بشكل كثيف في نشر الرذيلة والفاحشة من خلال نشر الزنا والشذوذ الجنسي.
هذا عدا عن نشر المخدرات مع ملاحظة الآثار المدمرة لهذه الظاهرة حيث تفسخ المجتمع وخلق حالات من عدم التوازن وسوء التوجه وشح العطاء، والتي تمس أشخاصاً أو عائلات أو تجمعات بشكل واضح من خلال نشر الشائعات بهدف تحطيم وحدة ومحبة المجتمع ليتحول إلى مجتمع مفسخ منكب على شهواته مهزوم في داخله حيث ساهمت الشائعات بزرع بذور الفتنة والشقاق داخل صفوف المجتمع الفلسطيني.
العملاء بعد الاتفاق:
ويبدو بشكل واضح أن دور العمالة في خلق جو قاتم على النواحي السياسية والاجتماعية بعد توقيع وتطبيق اتفاقية أوسلو بقيت كما هي حيث يُطرح الآن السؤال الأكثر أهمية في هذه المرحلة والدراسة بشكل عميق وجدي للدور البغيض الذي تؤديه الأيدي المندسة في صفوف المجتمع الفلسطيني في مرحلة ما بعد اتفاق أوسلو وتطبيقات الحكم الذاتي.
وبداية القول في هذا المجال إن اتفاق الحكم الذاتي الموقع بتاريخ 4/5/1994 في القاهرة قد أغفل بشكل مبرمج إسرائيلياً هذه المعضلة الشائكة وتم تأجيل البث فيها كقضيتي القدس والاستيطان حيث ورد في المادة العشرين من الاتفاق وتحت عنوان تدبير بناء الثقة وذلك من خلال البند الرابع "يتعهد الطرف الفلسطيني حل مشكلة الفلسطينيين الذين كانوا على اتصال مع السلطات الإسرائيلية وإلى حين التوصل إلى حل متفق عليه يتعهد الطرف الفلسطيني عدم ملاحقة الفلسطينيين قضائياً أو إيذائهم بأي شكل".
ولعل هذا الموقف أهدى فرصة ذهبية سمحت لهم بالتحرك الفعّال في مناطق الحكم الذاتي وتنفيذ عدة مخططات إغتيال مع العلم أن التحقيق يكشف عن دور العملاء الذين تحركوا بأوامر مباشرة لخلق حالة التشرذم والشقاق داخل المجتمع. وبناءً على الاتفاق غدا المس بأحد هؤلاء العملاء خرق للاتفاق المذكور.

مشكلة لإسرائيل:

والعميل المكشوف يصبح عالة على العدو، حيث مثلت مشكلة العمالة المحروقة مشكلة أساسية لإسرائيل حيث كل عنصر من أفراد الطابور الخامس الذي يتم كشف أمره وكشفه يشكل مشكلة لإسرائيل وحاولت إسرائيل الحل المؤقت بخلق مناطق منفصلة، حيث برزت إلى الوجود مناطق الدهنية في قطاع غزة وفحمة في الضفة الغربية.

هذا بعد أن فشلت المحاولات في نقل هؤلاء العملاء كسكان إسرائيليين وذلك نظراً لأن المجتمع الإسرائيلي لفظهم ورفض وجودهم. وكانت المحاولة الأخيرة في إسكان العملاء في (منطقة 48) في الناصرة وغيرها فقد باءت هذه بالفشل الذريع حيث نفذ فلسطينيو 48 خطوات عدة أوقفت تنفيذ هذا البرنامج.

خلاصة:

من خلال هذه الجولة السريعة في تلك القضية الشائكة البالغة التعقيد ندرك مدى مساهمة بروز العمالة وتناميها في تحقيق أهداف العدو وتحطيم آمال شعبنا في الحرية والاستقلال هذا عدا المساهمة الخطيرة لهذه الظاهرة في خلق مجتمع متفسخ متناحر.. مجتمع غارق في الشهوات والملذات وأفراداً يدينون الولاء والطاعة لمغتصب أرضهم.. وهذه الظاهرة قبل غيرها بحاجة إلى دراسة موسعة لوضع برامج عملية وخطط طويلة المدى للقضاء على هذه الحالة الهزيمة (العمالة).

قائمة المراجع

1- كتاب الأمان من مصائد الشيطان د. أمين عبد الرحمن.

2- دارسات حول الظاهرة سجن النقب.

3- مجلة فلسطين المسلمة (العدد الأول، السنة الثالثة عشر، يناير 95، شعبان 1415هـ).

4- من خلال الواقع الانتفاضي.